مريض الرابعة فجرا

اسماعيل حامد

برودة يناير القارسة تجعلنى اتخذ من غرفة الطبيب الخاصة ملاذا ..

ربما كنت استلذ بكوب الينسون الدافئ الذى حمى جوفى البارد من هذا السقيع ..
وعلى انغام كلاسيكية هادئة .. اقرأ فى احدى مراجع الجراحة العتيقة .. وبين كل معلومة ومعلومه اتيه حينا ثم أرجع مرة أخرى الى الارض .. حيث الواقع الذى فرض على تلك الحياة .. ويستمر العراك الابدى ..
لم أعد أرى الشارع من النافذة .. فقط قطرات الندى المعبئ ببخار ماء الفجر البكر حجبت عنى رؤية كل شئ .. وكلما سرى الدفئة فى جسدى كلما احسست اننى اريد أن أنام طويلا .. ما احلى الشتاء ان كان هناك دفئ !
طرقتين على الباب افاقانى من تلك الترنيمة الهادئة ..
صوت مألوف ولكنه مزعج فى كل مرة:
- الحق يادكتور .. فيه حالة دخلت دلوقتى الاستقبال .. والظاهر عنده كرشة نفس حادة.
اجيب على هذا الصوت بمنتهى الغيظ:
- وانتى ليه ماتصلتيش عليا على الرقم الداخلى.
فنظرت هي الى الهاتف الداخلى المجاور لى .. ولم ترد .. فقط لأن ليس هناك

obeikan.com

ردا .
نظرت الى حيث نظرت هى فوجدت السماعة معلقة .. تداركت الامر ونسيت اننى من فعل ذلك حتى لا يزعجنى احد !!
تبا لى نسيت وربما تناسيت اننى فى مستشفى واننى فى قسم الطوارئ وانه من الممكن ان تحدث كارثة فى اى لحظة .. يبدو ان الدفئ الذى شعرت به جعلنى أحس اننى فى بيتى .. فى غرفة نومى .. مستلقى على فراشى ووسادتى .
تركت الكتاب الذى كان بين يدى وهرولت الى حيث الحالة العاجلة التى أتت فى مثل هذا الوقت فى مثل هذا الجو الغير عادى .. ربما كان على ووجب ايضا ان افعل ما فى وسعى كى انقذ حياة هذا المسكين أو تلك المسكينة ..
هو شيج عجوز .. ربما عبر السبعين خريفا بشهور .. ثمة وجه تملأه التعاجيد وصلعة خفيفة ربما كانت نتيجة شباب مزهر ومورق وجسم نحيل بطبيعة الحال .. يستند على عصا من العاج .. ربما كانت ما يميزه على الاطلاق .. انفاس تتسارع .. تلهث تدافع عن نفسها من قبضة الموت الحديدية ..
ما لفتى انتباهى هو ذلك الوجه .. ظهر لى مألوفا من أول وهلة .. ووقعت شيبته ووقاره فى قلبى بأسرع ما يكون .. عينان ضيقتان عميقتان تنظران الى بمتعن وافتراس ..
يقف بجوار هذا الجسد شابة ربما ما بان أبيضا فيها هو ذلك الوجة واليدين .. لأنها ترتدى عباءة سوداء أنيقة .. ربما كانت ابنه الشيخ العجوز.

قمت بعملى كطبيب على اسرع ما يكون واخذت تاريخ مرضى سريع عن حالته الصحية ووقعت الكشف الطبى المتفحص وقمت بوضعه على جهاز التنفس الصناعى حتى تنتهى تلك الأزمة الصدرية.
خرج هذا الرجل من عندى بعدما استراح وشكرنى بكل امتنان .. شكرا ربما لا استحقه .. عيناه ما زالت تتفحصنى بكل بقوة ولكنى لم أبالى.

تكرر هذا الامر اسبوع كامل .. كل ليلة فى الرابعة فجرا .. يأتى هذا العجوز البائس الى المستشفى بصحبة ابنته الشابة ولكن ليس مريضا كأول مرة .. فقط كان يأتى لكى يرانى!!

كان ينظر لى ثم ينظر الى ابنته فتنظر هى الى اسفل دون أن تنبث ببنت شفة .. كنت فى قمة الدهشة أحاول ان استقرئ ما بين الكلمات ربما أحصل على مبتغاى فأرتاح ويهدأ بالى ولكن دون جدوى..

وفى مرة من المرات خرج من عندى كعادته بعدما قضى معى ساعة او يزيدد مثل كل ليلة .. ولم يأت بعد ذلك ..

مرت ثلاثة اشهر كاملة .. فلم أعتنى بالامر .. حتى فوجئت بتلك الشابة تأتى الى المستشفى فى نفس الساعة التى كانت تأتى فيها قبل ذلك مع والدها..

جلست فسألتها عن والدها .. فقالت بأعين دامعة: مات.

ثم قالت أتدرى لماذا كان ينظر لك كثيرا ؟

فقلت : لا.

فقالت واضعة عينها فى عينى: فقط لأنك تشبه كثيرا أخى الذى مات.

obeikan.com